

الدعوة العباسية والثورة وقيام الدولة العباسية:

تمهيد

كان بنو العباس بعيدين كل البعد عن السياسة عامة ومشكلة قضية آل البيت والدعوة بأحقيتهم في الحكم والخلافة خاصة وكان كبير البيت العباسي وهو عبد الله بن العباس في انشغال بالعلم والدفاع عن أبناء البيت العلوي كلما وافته الفرصة وكان أبنائه من بعده ينظرون إلى المسرح السياسي دونما مشاركة حيث كان على ساحة تلك المسرح ثلاث قوى متنازعة متحاربة اثنان منهم يهاجمان في حين تقوم القوة الثالثة بالدفاع مستميتة للبقاء وهذه القوى الثلاثة هي أبناء البيت العلوي والخوارج ضد الدولة الأموية.

أولاً: أبناء البيت العلوي والشيعة:

بدأ الصراع بين العلويين والأمويين عقب تولية الإمام علي بن أبي طالب الخلافة عام 35هـ وذلك عقب استشهاد الخليفة عثمان بن عفان على أيدي السبئية فثار والي الشام معاوية بن أبي سفيان مطالباً الإمام علي بأخذ الثأر من قتلة الخليفة عثمان وكان رأي الإمام علي تأجيل القصاص في حين أصر على تقديم القصاص أولاً كلا من: السيدة عائشة والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ومعاوية بن أبي سفيان وقد حاول الإمام علي تهدئة الجميع لكن لم يسمع له أحد.

فخرجت السيدة عائشة وطلحة والزبير إلى العراق لأخذ القصاص فخرج الإمام علي في أثرهم وقد عمل السبئية على الإيقاع بين الإمام علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير فأقاموا حرباً بينهم عرفت بمعركة الجمل عام 36هـ قتل فيها طلحة والزبير وعادت السيدة عائشة إلى المدينة ولم يبق غير معاوية في حالة رفض لموقف الإمام علي في تأجيل القصاص من قتلة عثمان وقد استعد كلا من الإمام علي ومعاوية إلى الحرب حيث دارت معركة صفين عام 37هـ وهي الأخرى لم تنته إلى نتيجة ملموسة غير تجديد العداء بين الإمام علي ومعاوية.

وكان الإمام علي عقب معركة صفين يعاني من إحدى فرق جيشه التي خرجت عليه رافضة خلافته عقب وقعة التحكيم بين علي ومعاوية وقد حاربهم الإمام علي وهزمهم في موقعة النهروان عام 38هـ وقد قرر الخوارج ضرورة التخلص من الإمام علي ومعاوية وعمرو بن العاص بوصفهم هم أسباب الصراع بين المسلمين فاستشهد علي بن أبي طالب عام 40هـ في حين نجا كلا من معاوية وعمرو بن العاص.

وقد تولى الحسن بن علي بن أبي طالب خلافة المسلمين لكنه تنازل عنها لمعاوية بعد أن رأى ما آلت إليه الأمور وذلك عام 41 هـ وقد سمي هذا العام بعام الجماعة ومن بعدها ظل أبناء البيت العلوي في حالة هدوء طيلة عشرين عامًا حتى وفاة معاوية بن أبي سفيان عام 60 هـ حيث تولى ابنه يزيد الخلافة من بعده فأثار ذلك الحسين بن علي وخاصة بعد أن دعاه أهل العراق ووعدوه بالنصر إن هو قدم إليهم وعندما ارتحل الحسين إلى العراق تفرق عنه أهلها وقد تركوه يواجه الجيش الأموي إلى أن قتل في موقعة كربلاء عام 61 هـ فندم أهل العراق على تركهم للحسين وذلك بعد أربعة أعوام من مقتله وأعلنوا أنهم تائبين من دمه وأنهم سوف ينتقمون ممن قتله، فخرجوا تحت قيادة سليمان بن صرد فانهزموا من الجيش الأموي في موقعة عين الورد عام 65 هـ نظرًا لعدم تنظيم صفوفهم .

ومنذ ذلك الحين بدأ الشيعة رحلتهم الحربية ضد الدولة الأموية بوصفها مغتصبة آل البيت حقهم في الحكم والخلافة وظهرت حركات يقودها أئمة أهل البيت أو من الطامعين في الوصول إلى الحكم مستغلين من تعاطف المسلمين لأبناء البيت العلوي وسيلة للوصول للحكم مثل المختار الثقفي وغيره وقد باءت جميع محاولات أبناء البيت العلوي والمتشيعون لهم بالفشل أمام ضربات الدولة الأموية والسبب وراء الهزائم المتكررة للعلويين عدم تنظيمهم العسكري من جهة وتفرق المتشيعون لهم قبيل المعارك من جهة أخرى.

ثانيًا: الخوارج:

ظهر الخوارج على مسرح الحياة السياسية عقب حادثة التحكيم بين علي بن أبي طالب ومعاوية حيث رفضوا إمامة علي بن أبي طالب وأخذوا عليه بعض الأمور التي أخطأوا فهمها مثل تحكيم الرجال وليس تحكيم كتاب الله في كل الأمور وعلى الرغم من محاولة الإمام علي تصحيح خطأهم بأن الله قد ترك في البشر الحكم في بعض القضايا لكنهم عادوا إلى العناد فاضطر علي بن أبي طالب لمحاربتهم حيث هزمهم في موقعة النهروان عام 38 هـ فانتقموا منه بأن قتلوه في عام 40 هـ ولما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة بدأوا في محاربته لأنه أيضا قد كفر حسب معتقداتهم وقد انقسموا على أنفسهم نتيجة لانقسام أفكارهم ففرقة منهم تدعى بالأزارقة نسبة إلى نافع بن الأزرق والصفورية وغير ذلك وكانت أفكارهم تدور حول لمن تكون له الخلافة والحكم .

وقد بنوا أفكارهم السياسية على أن الخلافة ينبغي ألا تكون مقصورة على قريش (بل تترك لجميع المسلمين لأنها حق الله يتولاها خيرهم ورعًا وتقوى ونفعًا وكفاية ، سواء أكان هاشميًا قرشيًا أم غير قرشي عربيًا أم أعجميًا ، فهم يدعون لنظام جمهوري ، لا تورث فيها الخلافة ، إنما يتم الوصول إليها بالأساليب الديمقراطية وهي

الانتخاب) ، وعدُّوا الأمويين مغتصبين للخلافة ، ينبغي مجاهدتهم ، ومجاهدة الجماعة التي ارتضيت حكمهم ونظامهم الوراثي ، وعدَّهم دار حرب وقتال ، كما حكموا بكفر عليّ ومعاوية ومن ناظرهما بعد التحكيم ؛ لأنهم حكموا بغير ما في كتاب الله ، إذ عدلوا عن تحكيم الله إلى تحكيم الناس .

كما تميز حزب الخوارج بعدد من الخصائص المبنية على الفكر الديني والسياسي المؤل تأويلًا خاطئًا، وهي:

__ السذاجة والسطحية في التعامل مع نصوص الوحي، تفسيرًا وتنزيلًا.

__ افتقارهم لأدوات النظر والاجتهاد.

__ التعصب وكثرة الاختلاف والتفرق شيعًا وأحزابًا لأبسط سبب.

__ محدودية النظر وضيق الفكر والأفق.

__ عدم الجمع بين المثل العليا للإسلام ومقتضيات الواقع، ومحاولة الربط والتوفيق بينها.

ثالثًا: الدولة الأموية:

حكمت الدولة الأموية العالم الإسلامي منذ عام 41 إلى عام 132 هـ ولم يستقر خلفاء هذه الدولة على عروشهم باستثناء الخليفة عمر بن عبد العزيز حيث كانوا جميعًا يخوضون الحروب إما خارجيًا بهدف فتح البلاد لنشر الإسلام وإما داخليًا بهدف القضاء على الراغبين في إزاحة الأمويين عن الساحة السياسية مثل الخوارج والعلويين والتمشيعين لهم وأيضًا عبد الله بن الزبير وظل خلفاء الدولة الأموية ومن عاونهم يوجهون ضربات لهؤلاء وخاصة الخوارج والشيعية ودولة عبد الله بن الزبير وقد استطاعت الدولة الأموية القضاء على دولة عبد الله بن الزبير بمكة أما الخوارج فنظروا للحروب الطويلة معهم وانقسام الخوارج على أنفسهم فقد استطاعت الدولة الأموية إضعافهم شيئًا فشيئًا حتى لجأوا إلى أطراف العالم الإسلامي لإقامة دول لهم مثل دولتي الخوارج الإباضية والصفورية بالمغرب .

أما الشيعة العلوية فقد نالوا الكثير من الهزائم ومقتل أئمتهم على يد الجيوش الأموية نتيجة لعدم تنظيمهم العسكري وتفرق أتباعهم قبيل أي معركة مما يعرض قادة الثورات إلى القتل والتمثيل بأجسامهم هذا من جهة ومن جهة أخرى صنعت الدولة الأموية عدوًا آخر لها هم الموالي والذين أساءت الدولة الأموية إليهم كثيرًا حيث جعلتهم في مرتبة ثانية بعد العرب على الرغم من إسلامهم كما أخذت منهم الجزية بعد أن أصبحوا مسلمين بحجة أن إسلامهم لم يكن إلا تهريبًا من الجزية مما يعرض خزانة الدولة للافتقار وقد انزعج الموالي من هذه السياسة وأصبحوا تحت إمرة كل داعي يدعوا للخلاص من الأمويين .

رابعاً: أبناء البيت العباسي:

رأى الفرع العباسي من آل البيت النبوي أن أولاد عمومته العلويين على الرغم من تاريخ مسيرتهم الطويل، والتي بدأت من 41هـ حتى عام 98 هـ لم يحققوا أي شيء ملموس على أرض الواقع، على الرغم من التضحيات الكبيرة التي قدموها في صراعاتهم ضد الخلافة الأموية، والتي كانت أكثر تنظيمًا من غيرها من الأحزاب المناوئة لها؛ لذا آل الفرع العباسي أن يتولى أمر المطالبة بأحقيتهم في الخلافة.

وقد بدأ التخطيط بانتقال الأمر من العلويين إلى العباسيين بوفاة رأس البيت العلوي أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ابن عليّ بن أبي طالب الذي لم يخلف له عقب يرثه على رأس البيت العلوي ، وهنا شعر العباسيون وعلى رأسهم محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس أن الفرصة قد واتتهم ، فأعلنوا أن الإمام أبا هاشم قد تنازل عن حق البيت العلوي في المطالبة بالخلافة إلى محمد بن عليّ رأس البيت العباسي؛ وهذه الوصية سواء أكانت صادقة أم كاذبة، فقد أشاعها العباسيون بين آل البيت ؛ ليضفوا على البيت العباسي الشرعية في المطالبة بالخلافة بدلاً من البيت العلوي ، وأيًا ما كان الأمر فإن محمد بن عليّ قد بدأ على الفور يضع خطة دعائية حرص فيها على إخفاء أطماع العباسيين في الخلافة ، فلم تكن البيعة تؤخذ باسم العباسيين ، بل تحت هذا الستار البراق المبهم " الرضا من آل محمد " يعني لشخص معين من آل البيت يتفق عليه فيما بعد ، وكذلك سموا أنفسهم بالهاشميين ، وهي كلمة عامة تطلق على الشيعة عامة من آل البيت ، وكيفما كان الأمر فقد كانت خراسان المكان المنوط بالدعاية العباسية التي كان مصدرها يرجع إلى إمام العباسيين الذي كان مقره مدينة الحميمية.

الجهاز السري للدعاية العباسية:

أنشأ العباسيون جهازًا دعائيًا سرّيًا بدرجة عالية من الكفاءة والذكاء، تنم عن عبقرية فذة في الترتيب والتنظيم، استفادت منها التجارب الدعائية الأخرى التي قامت خلال التاريخ الإسلامي مثل: الدعاية للقرامطة والفاطميين في بلاد المغرب، وكان ذلك الجهاز الدعائي العباسي مبدأه الأول هو السرية المطلقة، ويرجع ذلك إلى استفادة البيت العباسي مما حدث لآل البيت العلوي من كوارث منذ مقتل الحسين بن عليّ عام 60 هـ، وقد صار ذلك الجهاز على نهج دعائي، وضع خطته أئمة البيت العباسي وهو كما يلي:

1- الهيكل الوظيفي وثقافة رجاله:

جاء التنظيم الهيكلي للجهاز السري العباسي على أربع مراتب:

أ _ فالإمام العباسي على رأس هذا الجهاز، وكما سبقت الإشارة أن شخصية الإمام العباسي لم تكن معروفة لدى الجميع؛ وذلك لحمايته من عيون أجهزة الاستخبارات الأموية التي كانت ترصد كل تحركات أفراد البيت النبوي، سواء أكانوا علويين أم عباسيين.

ب _ أما المرتبة الثانية فهي مرتبة الدعاة الذين كانوا على علم بشخصية الإمام أو ما كان يعرف اصطلاحًا بإمام الوقت وكان هؤلاء الدعاة ينقسمون ما بين العراق وخراسان ولعل من أشهر دعاة العراق: ميسرة العبدي 102-105 هـ ، بكير بن ماهان ، وأبا سلمة الخلال الذي عرف بوزير آل محمد ، أما دعاة خراسان : فمن أشهرهم أبو عكرمة السراج مولي ابن عباس رضوان الله عليه وحرب بن عثمان وكثير الكوفي وخداش وسليمان بن كثير وأبو مسلم الخراساني .

ج _ أما المرتبة الثالثة فهي مرتبة النقباء، وقد تألفت من عدة مجموعات دعائية، المجموعة تتكون من اثني عشر نقيبًا تابعين لداعٍ واحد، وكان هؤلاء النقباء يتمتعون بقدرات عسكرية ودعائية، ولم يكونوا على علم بإمام الوقت.

د _ أما المرتبة الرابعة في مراتب الهيكل الوظيفي للجهاز الدعائي السري، فكانت للعمال الذين يتألفون أيضًا من عدة مجموعات بلغ تعداد كل مجموعة سبعين عاملاً تابعين لأحد النقباء.

هذا، وتتضح أهمية التنظيم للحركة العباسية من حرصها على وجود أتباع لها في كل بلد تقريبًا، وأن يكون هؤلاء الأتباع من يحمل السلاح منهم أضعاف جند الأمويين.

أما عن الثقافة الدعائية التي كان يتمتع بها أفراد الجهاز السري للدعاية العباسية، فيقال إنها كانت ترجع إلى وجود مدرسة للدعوة العباسية مسئولة عن إعداد الدعاة نفسيًا وثقافيًا وعسكريًا، ويتضح ذلك من القدرات العسكرية الخلاقة والتعمق في العلوم الإسلامية، كما كان لهؤلاء الدعاة قدرة بارعة على الدبلوماسية والدهاء ومقدرة على مداراة الأحوال، واجتذاب الأنصار ومنطق في المخاطبة يتسم بالأدب والبلاغة ومراعاة مقتضى الحال.

2- اختيار البيئة المناسبة لبث الدعاية :

حرصت القيادة العباسية على إيجاد منطقة خصبة يثثون فيها دعايتهم، فأخذوا يدرسون أقاليم الدولة الإسلامية من الناحية الاستراتيجية، فلم يجدوا غير خراسان لبث الدعاية، وذلك لما كانت تتمتع به تلك البلاد من خصائص، لعل من أهمها : بعدها عن مركز الدولة الأموية، وخلوها من صراع الأحزاب السياسية، كما وضّح محمد بن عليّ سبب اختياره لخراسان في قوله : (أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة لنا راسخة، وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة، ولم يقدح فيها فساد، وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتحارب الأتباع للسادات وكتتحالف القبائل وعصبية العشائر. وبعد، فكأننى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح هذا الخلق).

ولما تحددت المنطقة التي سيتم فيها بث الدعاية العباسية بدأ الجهاز الدعائي عملياته الدعائية فور انتهاء محمد بن عليّ من كلامه، فقد وضع لرجاله برنامجًا دعائيًا يسيرون عليه، وهو على النحو التالي:

أ- إخفاء الدعاة العباسيين لشخصية الإمام، فقد حرص العباسيون ودعاتهم على إخفاء اسم إمامهم، وذلك لما علموه في أن إظهار اسمه إنما يعرض حياته للخطر من جانب رجال الدولة الأموية، وكان من أول الأوامر الصادرة إلى رجال الجهاز السري الدعوة إلى الرضا من آل محمد عامة، دون تحديد شخصية الإمام الذي لم يكن يعرفه إلا عدد قليل من الدعاة المقربين، كما أمروا أن يجيبوا كل من يسأل عن اسم الإمام بأن يقولوا : (أمرنا بكتمان اسمه حتى يظهر).

كما وجه محمد بن عليّ أوامره إلى رجال الجهاز الدعائي المتجهين إلى خراسان بقوله: (وليكن اسمي مستورًا عن كل أحد إلا عن رجل عدلك في نفسك في ثقتك به ، وقد وكدت عليه وتوثقت منه وأخذ بيعته وتقدم بمثل ذلك إلى من توجه من رسلك ، فإن سئلتهم عن اسمي فقولوا نحن في تقية وقد أمرنا بكتمان اسم إمامنا).

ب - الدعوة باسم الرضا لآل محمد ، كان الشعار الذي بثه الجهاز الدعائي لكسب الأنصار هو الرضا لآل محمد ، وهذا الشعار كان من أهم المبادئ الدعائية ، إذ إنه من أدقها إحكامًا وأعلاها قدرًا وأكبرها خطرًا وأقواها أثرًا وأشدّها سحرًا وأوسعها أثرًا ، وذلك بأنه كان يطابق أفكار المعتقدين بحق أهل البيت في الخلافة ، ويوافق آراءهم ، ويلبي رغباتهم ، ويحقق غاياتهم ، وهو يحرك عواطف المسلمين ويثير مشاعرهم ، ويحمل فريضة منهم على الانضمام إلى الدعوة ، ومؤازرة أصحابها . هذا وإن كانت تلك المادة الدعائية تخص آل البيت ، فلقد وضعت القيادة العباسية مادة دعائية أخرى ، كان بعضها يخص العرب والبعض الآخر يخص الموالي من العجم ، وذلك باستغلال مساوئ الدولة الأموية في معاملاتهم مثل : (التفرقة الطبقية والقومية ، ضيق العجم بالنظم المالية السيئة ، اشتغال العرب بالعصبية القبلية السياسية ، ضيق العرب بالضرائب الباهظة) ، وكانت هذه المسائل الأربعة هي ما ركز عليه الجهاز الدعائي ؛ لإثارتها في نفوس من يعانون منها ، حتى يصلوا بها إلى درجة الغليان النفسي ، والرغبة في إيجاد حل يخرجون به من أزمتهم وهو ما فعله الجهاز السري إذ أثار المشكلة ثم وضع لها الحل وهو المناداة بالمساواة بين المسلمين ، كما أشاع رجال الدعاية العباسية أن هذه المساواة لا تتحقق إلا بآل البيت ، والتي كانت قضيتهم هي نصرة الحق على الباطل وإقامة العدل ، وإزالة الظلم ، وأنهم لا يبتغون غير استخلاص الخلافة من الأمويين ، وردّها إلى أهل البيت أصحابها الشرعيين .

3 - النبوءات ودورها في الدعاية العباسية :

دعم الجهاز السري للدعاية العباسية دعاياته بعدد من الأحاديث النبوية الموضوعة ، وبكثير من النبوءات ؛ لكسب أكبر عدد من الأنصار ، وكانت كما سبقت الإشارة إلى البيئة المستخدمة لبث الدعاية العباسية هي بلاد خراسان ؛ لذا قام الجهاز بإغراق هذه المنطقة بهذا النوع من الدعاية مثل النبوءة التي ادعاها العباسيون على لسان أبي هاشم في حديثه لمحمد بن عليّ قبل وفاته في قوله : (يا ابن عم ، إني ميت وأنت صاحب هذا الأمر ، وولدتك ابن الحارثية هو القائم به ، ثم أخوه من بعده ، والله لا يتم هذا الأمر حتى تخرج الرايات السود من خراسان ، ثم ليغلبن على ما بين حضرموت وأقصى إفريقية ، وما بين الهند وأقصى فرغانة ، فعليك بهؤلاء الشيعة

فهم دعائك وأنصارك ولتكن دعوتك خراسان ، واستبطن هذا الأمر الحي من اليمن ، فإن كل ملك لا يقوم بهم ، فأمره إلى انتفاض وأمرهم فيجعلوا اثني عشر نقيباً وبعدهم سبعين نقيباً ، فإن الله تعالى لم يصلح بني إسرائيل إلا بهم ، وقد فعل ذلك النبي **ﷺ** ، فإذا مضت سنة الحمار رسلت نحو خراسان ، فمنهم من يُقتل ومنهم من ينجو ، حتى يظهر الله دعوتكم ، فقال محمد بن عليّ : أبا هاشم وما سنة الحمار ؟ ، قال : إنه لم تمض مائة سنة من نبوة إلا انتقض أمرها ، لقوله تعالى : " أو كالذي مرّ على قرية " إلى قوله : " فأما الله مائة عام " وأعلم أن صاحب هذا الأمر من ولدك عبد الله بن الحارثية.

كما أشاع الدعاة العباسيون بين ذويهم نبوءة ، ادعوا أنها تتردد في البيت الأموي (أنهم كانوا يرون أن ملكهم يزول على يد رجل من بني العباس يقال له ابن الحارثية) ، فكان ذلك الرجل هو أبا العباس السفاح والذي كانت له صفات يقال أن الخلفاء الأمويين كانوا يعرفونها عنه ، فكانوا يرسلون عيونهم بين آل البيت العباسي ؛ للبحث عن ذلك الرجل ، وكان الخليفة مروان آخر الخلفاء الأمويين أكثرهم بحثاً عنه ، وقد نما إلى علمه أن الرجل الذي له تلك الصفات قد ظهر (فأرسل رسوله للقبض على أبي العباس فأخذه بالصفة ، فلما ظهر إبراهيم قيل للرسول : إنما أمرت بإبراهيم وهذا عبد الله ، فترك أبا العباس وأخذ إبراهيم ، فانطلق به إلى مروان ، فلما رآه ، قال : ليس هذه التي وصفت لك ، فقالوا : قد رأينا الصفة التي وصفت وإنما سميت إبراهيم فهذا إبراهيم . فأمر به فحبس وأعاد الرسل في طلب أبي العباس فلم يروه).

كما أشاع الجهاز السري للدعاية العباسية عددًا من الأحاديث النبوية الموضوعة، والتي لم تثبت صحتها مثل: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان، وظهور من الفتن، يقال له السفاح، فيكون إعطاؤه المال حثيًا..). وأيضا في ادعائهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أعلم العباس عمه أن الخلافة تؤول إلى ولده، فلم يزل ولده يتوقعون ذلك). وغير ذلك من الأحاديث التي كانت مادة دعائية بالغ الجهاز الدعائي في تصويغها بين نفوس المتعلقين بآل البيت؛ ليضمنوا ولاءهم وليكسبوه إلى حزبهم دونما انقطاع.

ثانيًا: الجهاز السري والدعاية العباسية المضادة للبيت العلوي:

عندما قرر العباسيون خوض غمار أمر المطالبة بالخلافة لبيتهم العباسي ، لم تكن الدولة الأموية هي هدفهم الوحيد ، بل واجهوا مشكلة أخرى وهي الفرع العلوي من آل البيت ، والذي أخفق في جميع محاولاته لنيل الخلافة ، بل إن العلويين كانوا منافسًا قويًا لا يقل قدرًا عن الأمويين ، وكان العباسيون حريصين كل الحرص

على كتم أمرهم ؛ لخوفهم أنهم إذا صرحوا بطلبهم للخلافة أن يستاء العلويون منهم ، ويسخطوا عليهم ، وينددوا بهم ، وينقطعوا عنهم ، وأن ينفر شيعتهم من موالاتهم ، ويجهروا بمعاداتهم ، ويكفوا عن معاونتهم ، فيدب الشقاق بين أهل البيت ، ويضعف أمرهم ، وتفشل دعوتهم ؛ لذا عول العباسيون على اصطناع سياسة دعائية ، يقوم الجهاز الدعائي السري بتنفيذها ، وهذه السياسة الدعائية تلخص في خداع العلويين ومداراتهم ، والعمل على كسب مودتهم ، والطمع في مؤازرتهم .

وكانت من أولى وسائلهم الدعائية التي أصدروها إلى جهازهم السري العامل في خراسان، ألا يجلس عمال الجهاز العباسي إلى دعاة الشيعة العلوية، وذلك حتى لا يدخل على عمال العباسيين أنهم يعملون لصالح العلويين، وذلك في الوصية التي أوصى بها محمد بن عليّ إلى أبي عكرمة السراج (بأن يبتعد عن غالب النيسابوري ، ولا يلقاه ، وأن يعتزل مجالسه ، ولا يشهد مناظراته في فضل العلويين ، وحقهم في الخلافة). كما أن القيادة العباسية قد أمرت دعائهم (أن ينتبذوا انتفاضات العلويين، ولا يشاركوا فيها؛ لكي لا يذوبوا في شيعتهم، ولا يقضى عليهم). ويرجع ذلك القرار إلى تمويه العباسيين للدولة الأموية عنهم، وإشعارهم بأن العباسيين وهم من آل البيت غير راضين عن انتفاضات البيت العلوي.

كما لجأت القيادة العباسية إلى وسيلة دعائية أخرى ، وهي محاولة كسب شيعة العلويين إلى صفوفهم ؛ وذلك بإعلامهم أن كل خارج من البيت العلوي إنما مصيره القتل والتشريد ، وكان ذلك عن طريق بعض النبوءات المصطنعة التي أمروا بها رجال جهازهم ببثها ، والتي منها أن محمد بن عليّ قد أمر أبا هاشم بكير بن ماهان أن يشير على شيعتهم بالكوفة ، أن يعرضوا عن الانضمام إلى زيد بن عليّ ، والقتال معه ، عندما بلغه أنه يستعد للثورة ، قال أبو هاشم : (قال لي محمد بن عليّ : قد أظلكم خروج رجل من أهل بيتي بالكوفة ، يُعزُّ في خروجه كما عُزَّ غيره ، فيقتل ضيعة ويصلب ، فحذر الشيعة قبلكم أمره).

ونقل عن أبي هاشم أن محمد بن عليّ أوصاه حين أرسله إلى خراسان أن يصد شيعتهم بها عن الظهور مع العلويين ، والالتحاق بهم ، والاندفاع في مناصرتهم ، وأنه أخبره أن العلويين تُحُوا عن الخلافة وحُرْموها ، وأنهم لن يظفروا بها ، وأنه كتب على قادتهم الإخفاق والهلاك ، وأن العباسيين لن يجنوا خيراً منهم ، بل سيصلون عواقب طيشهم وتسرعهم ، وأنهم سينتقمون لهم عندما تؤول الخلافة إليهم ، فقد روي عن أبي هاشم أن محمد بن عليّ قال له : (حَذِّرْ شيعتنا التحرك في شيء مما يتحرك فيه بنو عمنا من آل أبي طالب ، فإن خارجهم مقتول ، وقائمهم مخذول ، وليس لهم في الأمر نصيب ، وسندرك بثأرهم ، وسنبتلي بسعيهم ، ثم لا يكون ضرر

ذلك إلا عليهم) وحُمل عنه أنه أمر شيعة العباسيين أن لا يقربوا يحيى بن زيد ، ولا يلتفتوا عليه ، ولا يثوروا معه ، بعد أن صرع والده ، ففر من الكوفة ، واستخفى بخراسان ، وأنه أعلمهم أن محمد بن عليّ ذكر أن مصيره الموت ، قال مصنف أخبار الدولة العباسية : (لما رجع بكير إلى خراسان ، قال لهم : إن يحيى بن زيد كامن بين أظهركم ، وكأنكم به قد خرج على هؤلاء القوم ، فلا يخرجن معه أحد منكم ، ولا يسعى في شيء من أمره ، فإنه مقتول ، قد نعه الإمام إلى أهل بيته) .

وبهذه المواد الدعائية التي كلف بها الجهاز الدعائي العباسي ذا الطابع السري، قد استطاع أن ينجز مهمته، ويجني ثمارها في حوالي ثلث قرن ؛ وذلك بجلوس العباسيين على كرسي الخلافة عام 132 هـ / 749 م ، والقضاء على منافسهم الأول وهي الدولة الأموية ، والتي اغتصبت الحكم والخلافة من أصحابها الشرعيين من آل البيت ، سواء أكانوا من الفرع العباسي أم من الفرع العلوي .

غير أن جلوس العباسيين على كرسي الخلافة قد أثار حفيظة العلويين ، فاتهموا العباسيين بأنهم قد أخذوا حقاً كان لهم ؛ لذا كان لزاماً على العباسيين أن يصطنعوا سياسة دعائية ، يستطيعون من خلالها تصويق أمر انتقال الخلافة من البيت العلوي إلى البيت العباسي ؛ وذلك لكسب الرأي العام داخل العالم الإسلامي ؛ ولكسب الشيعة العلويين أيضاً ، وتهديتهم ، فادعوا مسألة تنازل أبي هاشم ابن الحنفية قبل وفاته إلى محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس .

وهذه النظرية المبتكرة من جانب العباسيين قد خضعت لتحقيق المؤرخين ، وخرجوا منها أنها كانت إحدى الوسائل الدعائية المضادة التي استخدمها العباسيون ؛ لمواجهة الشيعة العلوية :

أولاً: إذا كان هذا التنازل قد حدث فعلاً؛ لكان للعباسيين الحق في الإفصاح عنه، ولكننا نجد دعوتهم تلقى باسم آل البيت أو آل محمد، ولا شك أن الغرض من ذلك هو التمويه أو التعمية عن الشيعة بوجه خاص، وهذا دليل يهمل فكرة التنازل.

ثانياً: من الرسائل التي تبودلت في صدر الدولة العباسية بين الإمام العلوي محمد النفس الزكية " حفيد الحسن بن عليّ بن أبي طالب " وبين الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، يتبين لنا أن العلويين والعباسيين اجتمعوا في أواخر أيام الدولة الأموية، واتفقوا على أنه في حالة سقوط الخلافة الأموية يكون خليفة المستقبل الإمام محمد

النفس الزكية، وكان أبو جعفر المنصور حاضرًا في هذا الاجتماع، فلو أن فكرة التنازل وقعت لاعترض أبو جعفر المنصور على ذلك، أو أشار إليها في رسائله.

ثالثًا: العباسيون بعد أن استقر لهم الأمر، حاولوا أن يحيطوا خلافتهم بشيء من الشرعية ، فطبقوا عليها قانون الوراثة في الشريعة الإسلامية على اعتبار أن الخلافة تركة بعد النبي ، فقالوا: أنهم من نسل العباس عم النبي ، بينما العلويون من نسل فاطمة الزهراء بنت النبي ، والعم في الميراث والعصبية مقدم على ابن البنت ، ففي الرسائل التي تبودلت بين المنصور العباسي وبين محمد النفس الزكية ، نجد كلامًا في هذا المعنى حينما يقول له المنصور: " وأما قولكم أنكم بنو رسول الله ρ ، فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: " ما كان محمد أبا أحد من رجالكم " ، ولكنكم بنو بنته ، وإنها لقربة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ولا ترث الولاية ، ولا يجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها " ، وأشاع العباسيون هذه النظرية في البلاد ، ووجدوا من الشعراء والأدباء من يؤيد هذه الفكرة .

وعلى الرغم من ذلك، والمحاولات المضنية التي بذلها العباسيون؛ لتهدة الشيعة العلوية، إلا أنهم لم يقتنعوا بما يقدمه العباسيون من وسائل تذيب ما بينهم من عداوة، فأخذوا يكيلون لهم التهم، كما خاض الفريقان ضد بعضهم البعض حروبًا من أجل الخلافة، إلى أن فكر الشيعة العلوية في البحث عن مكان آخر يقيمون فيه دولة لهم كاملة التنظيم، حتى يستطيعوا من خلالها مناوأة أولاد عمومته العباسيين.

ومن الجدير بالذكر أن العباسيين على الرغم من أنهم كانوا أحد فرعي البيت النبوي ، إلا أنهم كانوا يدينون بمذهب السنة على خلاف العلويين الذين يدينون بالمذهب الشيعي ، ويجلس العباسيين على كرسي الخلافة ، بفضل الخبرات الواسعة التي اكتسبوها ، من خلال استقراهم لماضي آل البيت ، واستطلاعهم لحاضرهم ومستقبلهم ، فهذه الخبرات التي أثقلوا بها جهازهم الدعائي قد أوصلتهم إلى الحكم.

سقوط الدولة الأموية:

جاء سقوط الدولة الأموية نتيجة لبعض السياسات السلبية التي انتهجها الأمويون تجاه الرعية التي انقسمت على نفسها إلى عدة أحزاب حيث تمنى كل حزب الخلاص من الحكم الأموي وهذه الأحزاب هي حزب الشيعة العلوي وحزب الخوارج وحزب الموالي وأخيرًا حزب البيت العباسي والذي أفاد من تجارب هذه الأحزاب مع الدولة الأموية فنظم نفسه وأخذ يوجه الضربات للدولة الأموية والتي أسهمت هذه الأحزاب في إضعافها أولًا.

فالشيعة العلوية خاضوا معارك كثيرة مع الدولة الأموية وكانت هذه المعارك نتيجتها الهزيمة للشيعة إلا أن المكسب الوحيد الذي اكتسبه الشيعة هو تعاطف كثير من المسلمين مع آل البيت في حين ترسخت الكراهية للأمويين.

أما الخوارج فقد شنوا حروباً كثيرة ضد الدولة الأموية فهم كانوا على رفض تام لسياسة الأمويين وتوريثهم الحكم وقد أضعفت حروب الخوارج الدولة الأموية.

كما انتهجت الدولة الأموية سياسة خاطئة تجاه كلا من العرب أنفسهم والأجناس الأخرى من فرس وترك وبربر، أما العرب فقد عملت الدولة الأموية على تشجيع العصبية القبلية بين اليمنية والقيسية وذلك على حسب سياسة كل خليفة أموي.

أما الأجناس الأخرى وهم من كان يطلق عليهم الموالي والموالي هم أهل البلاد المفتوحة الذين اعتنقوا الإسلام. وهؤلاء كانوا في عهد الدولة الأموية يعاملون معاملة غير معاملة العرب ، فقد حرّموا من المساواة السياسية والاجتماعية بالعرب . حرّموا من الوظائف الكبرى في الدولة ، ومن العطاء الذي يستحقونه نظير التحاقهم بالجيش ، بل وفرضت عليهم الجزية رغم إسلامهم مما أثار حفيظة الموالي من الفرس والبربر فصاروا ينضمون تحت أي لواء ينادي بإسقاط الحكم الأموي فانضم الفرس إلى الدعوة للرضا من آل محمد والتي نظمها البيت العباسي تحت إدارة جهازه الدعائي المنظم فتكونت الجيوش من العنصر الفارسي حتى اصطدموا بالجيش الأموي تحت قيادة آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد وذلك في موقعة الزاب عام 132هـ/749 م و قد انتهت المعركة بهزيمة الأمويين ولم يكن نصر العباسيين دليل على تفوقهم العسكري بل إن العصبية القبلية داخل الجيش الأموي كان لها عامل كبير في هزيمة الأمويين .

● خلفاء الدولة العباسية

أبو العباس 132-136 هـ:

جلس الخليفة أبو العباس عبدالله بن محمد على عرش دولته وبدأ في توزيع ولايات الدولة على أعمامه كما أخذ في البحث عن مقر جديد يكون عاصمة لدولته فعندما بويع بالخلافة كان مقيماً بالكوفة، ويبدو أنه لم يكن مطمئناً لأهلها فنزل في مكان قريب منها عرف بهاشمية الكوفة واتخذها مقراً له ولحاشيته سنة 132هـ. غير أنه لم يمكث طويلاً وانتقل إلى مدينة الأنبار في سنة 134هـ، ويبدو أنها أعجبتة فبنى بجوارها مدينة لنفسه عرفت بهاشمية الأنبار أقام بها حتى وفاته. كما شهد عهده بعض الثورات التي رفعت الرايات

البيضاء في محاولة لإعادة الحكم العربي الأموي لكن دون جدوى ففوضى أبو العباس على كلا من ثورة حبيب بن مرة في إقليم البثينة بفلسطين، وثورة أبي الورد بالشام، وثورة ابن اسحاق بن مسلم أحد قواد مروان بن محمد بالجزيرة شمالي العراق ويلاحظ أن هذه الثورات كانت إقليمية متفرقة.

أما الحروب الخارجية في عهد هذا الخليفة، نلاحظ أن الدولة البيزنطية انتهزت فرصة الاضطرابات التي صحبت قيام هذه الدولة وهاجمت المناطق الشمالية للدولة الإسلامية وهي منطقة الثغور فأرسل الخليفة أبو العباس عمه عبد الله بن علي والي الشام على رأس حملة عسكرية لتأمين الحدود الإسلامية، فاتجه عبد الله بن علي شمالاً لتنفيذ هذه المهمة سنة 136 هـ ولكنه في أثناء الطريق علم بموت الخليفة العباسي فتوقف عن التقدم وأخذ يستعد لمحاربة الخليفة الجديد أبي جعفر المنصور.

أما من جهة الشرق، فقد أحرز أبو مسلم الخراساني العديد من الانتصارات على الجيوش الصينية في أواسط آسيا سنة 134 هـ.

أبو جعفر المنصور (136-158 هـ - 754-775 م):

يعد أبي جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ومُرسى قواعدها ومثبت أركانها حيث تميز بالذكاء والدهاء وحسن التدبير وقوة الشكيمة والحزم وهيبة الملك وقد تعرضت الدولة العباسية في عهده لعدة مشاكل كادت أن تقسم قوة الدولة وتضعفها لكنه استطاع القضاء عليها.

1_ مشكلة عمه عبد الله بن علي:

شعر عبد الله بن علي بقوته لما أحرزه من انتصارات كثيرة وأن له الحق في أن يتولى منصب الخلافة عقب وفاة أبو العباس السفاح لكن تولية أبي جعفر حالت بينه وبين منصب الخلافة، فبايع لنفسه بالخلافة في مدينة حران بالجزيرة معتمدًا على الجيش الذي تحت قيادته، وكان هذا الجيش قد أُعد لمحاربة البيزنطيين فاستخدمه في محاربة أبي جعفر المنصور، فاستعمل الخليفة الحيلة معه بأن وجه له أحد كبار قادة الدولة العباسية وهو أبي مسلم الخراساني وذلك لأن عبد الله بن علي كان في جيشه فرقة من الجند الخراسانية الموالية لأبي مسلم مما انعكس سلبيًا على عبد الله بن علي إذا ما انفصلت هذه الفرقة عن جيشه لكن عبد الله بن علي أخطأ خطأ عسكريا حينما أمر بقتل الفرقة الخراسانية فاشتبك الفريقان فانهمز عبد الله بن علي وفر إلي أخيه سليمان بن علي والي البصرة حيث طلب له الأمان من الخليفة أبي جعفر.

2-أبو مسلم الخراساني:

كان أبو مسلم الخراساني أحد كبار القادة المؤسسين للدولة العباسية فعينه الخليفة أبي العباس واليًا على المشرق الإسلامي وكان أبو مسلم يشعر بأن له قدر ومكانة وأنه لابد أن يستشار في كل أمور الدولة وكان بينه وبين أبي جعفر تنافس فأبو مسلم لم يكن يعطي أبي جعفر قدره عندما كان وليًا للعهد مما أغضب أبي جعفر عليه وأشار على أخيه أبي العباس بقتله حتى لا يستفحل أمره لكن الخليفة أبو العباس رفض قتل أبي مسلم.

وعندما تولى أبي جعفر الخلافة أخذ يتحين الفرص لكي يقتل أبا مسلم فاحتال عليه بأن أراده في استشارة ولا بد من أن يأتي إليه وكان أبو مسلم متخوف من الخليفة لكن رجال الدولة قد أوعزوا له بصلاح الأحوال بينهما فعندما أتى أبي مسلم للقاء الخليفة أبي جعفر أظهر له الاحتراف في البداية، لكن النقاش بينهما احتد فما كان من الخليفة إلا أن قتله وأمر أربعة من رجاله قد أعدهم بالإجهاز عليه فتخلص أبي جعفر من أهم أعدائه وأقواهم.

3-التغلب على ثورة العلويين:

تزعم هذه الثورة العلوية محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية (أي الطاهر من الذنوب) واشترك معه أخوه إبراهيم.

ونلاحظ أن القائمين بهذه الثورة هم الفرع الحسيني للعلويين، أما الفرع الحسيني ويمثله في ذلك الوقت الإمام جعفر الصادق، فإنه لم يشترك في الثورة ضد العباسيين بل اتخذ سياسة التريث (التقية) إلى أن يأتي الوقت المناسب. ولهذا كان الإمام جعفر الصادق موضع إطراء المنصور في الخطابات التي تبادلها مع محمد النفس الزكية.

وكان محمد النفس الزكية يرى أنه أحق بالخلافة من العباسيين استنادًا إلى حقه الشرعي بصفته حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب، واستنادًا إلى مبايعة الهاشميين له بالخلافة أواخر الدولة الأموية.

وكان المنصور يشك في نوايا محمد ويخشى طموحه في الخلافة، وقد ازدادت شكوكه عندما حج سنة 140 هـ وتخلف محمد وأخوه إبراهيم عن المشول بين يديه، وكانا يقيمان في الحجاز في مكان غير معروف.

لهذا اهتم المنصور بالبحث عنهما واستطلاع أخبارهما، فأوعز إلى ولاته في الحجاز بمراقبة بني الحسن والتضييق عليهم. وحينما حج المنصور سنة 144 هـ قبض على آل الحسن جميعاً وأرسلهم إلى العراق وسجنهم بالكوفة لأنهم يتسترون على المكان الذي يوجد فيه محمد النفس الزكية.

ورأى المنصور بعد ذلك أن يستعمل أساليب الدهاء ليعجل من ظهور محمد ومن قيامه بثورته قبل أن يستفحل خطره . فدرس له عيوناً يتظاهرون بأنهم أتباعه ويوهمونه بأن دعوته قد عمت الأقطار. كذلك أوعز المنصور إلى قواده بأن يكتبوا إلى محمد ويخبرونه بأنهم معه ويدعونه إلى الظهور.

وانخدع محمد بهذه الحيلة إذ كان يقول لأتباعه (لو التقينا مال إلي القواد كلهم) .

وفي أول رجب سنة 145 هـ خرج محمد النفس الزكية من مكمنه وأعلن عن ثورته في المدينة المنورة، وكان متفقاً مع أخيه إبراهيم على أن يثور هو الآخر وفي نفس الوقت بمدينة البصرة في جنوب العراق حتى يقع المنصور بين نارين.

ولكن حدث أن مرض إبراهيم بالجذري فتأخرت ثورته مدة شهرين مما أتاح الفرصة للمنصور كي يقضي على الأخوين واحداً بعد الآخر.

اتخذت الحرب صفة كلامية في بادئ الأمر وذلك عن طريق إلقاء الخطب وتبادل الرسائل واستخدام أساليب الدعاية المختلفة، حيث أخذ كل فريق يشرح وجهة نظره وحقه في الخلافة ويتفاخر بنسبه وحسبه. وقد أورد الطبري نصوص هذه الرسائل في تاريخه.

وحاول المنصور استعمال طرق اللين والمدارة فدعا محمد إلى حل الخلاف حلاً سلمياً وأعطاه أماناً على نفسه وولده وأخوته ومن بايعه، ووعدته بإنزاله حيث شاء من البلاد، كما عرض عليه مبلغاً كبيراً من المال. وقد رد محمد على المنصور بأمان مثله إن هو دخل في بيعته لأنه أحق منه بالخلافة ثم اتهم المنصور بأنه رجل لا أمان له مطلقاً فقال: (وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت علي ... وأنا أولى منك وأوفى بالعهد لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجلاً قبلي ، فأبي الأمانات تعطيني أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبدالله بن علي ، أم أمان أبي مسلم) .

وبعد فشل هذه المراسلات أرسل المنصور ولي عهده وابن أخيه عيسى بن موسى على رأس جيش كبير إلى المدينة. ويلاحظ أن المنصور حرص على جعل قيادة الجيش لأحد الأمراء البارزين في الأسرة الهاشمية حتى يكون له تأثير قوي في رفع روح الجنود المعنوية .

وقامت الحرب بين الفريقين وكان وضع محمد في الحجاز سيئاً للغاية من الناحية الاستراتيجية لان الحجاز قطر قاحل فقير في غلاته ورجاله وسلاحه .

يضاف إلى ذلك أن المنصور قطع عنه الأقوات والمؤن الواردة إليه من الشام ومصر وطرطير خليج أمير المؤمنين في مصر (وهي القناة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر لامداد الحجاز بالغلل). هذا إلى جانب أن محمداً حفر حول المدينة خندقاً اقتداء برسول الله، فأتم بذلك الحصار الاقتصادي عليه. فلما وصل الجيش العباسي تخلى عن محمد كثير من اتباعه فضعفت قوته وانتهى بهزيمته وقتله وإرسال رأسه إلى المنصور في منتصف رمضان سنة 145 هـ.

ثم تحول القائد عيسى بن موسى بعد ذلك إلى قتال إبراهيم في جنوب العراق. وهناك عند قرية باخمري بالقرب من الكوفة التقى الفريقان في معركة حاسمة هزم فيها الجيش العلوي وقتل إبراهيم في أواخر ذي القعدة سنة 145 هـ ولذا سمي بشهيد باخمري.

تأسيس مدينة بغداد:

أراد الخليفة المنصور اتخاذ عاصمة لدولته فأخذ في البحث عن موقع يصلح لأن يكون عاصمة ذات تحصين قوي فاستقر على موضع بغداد الحالية فقد تميزت بوقوعها على حدود الإقليمين العربي والفارسي أي على مقربة من البيئة الفارسية التي يعتز بها العباسيون. كذلك تمتاز بأهميتها الاقتصادية كمركز تجاري لوقوعها على الطرق والممرات البرية والبحرية المتصلة ببقية أنحاء الدولة. وتمتاز أيضاً بخصوبة أرضها لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، فنهري دجلة يرويها مباشرة لوقوعها على ضفته الغربية، كذلك يتصل بها نهر الفرات عن طريق قنواته المتعددة. هذا إلى جانب حصانة موقعها من الناحية الحربية فيروي يعقوبي أنه قيل للمنصور بصدد أهمية هذا المكان (وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسور وخربت القناطر لم يصل إليك عدوك).

امتدت خلافته حوالي عشر سنوات، وجاء إلى الحكم والبلاد منهوكة القوى من كثرة ما أريق فيها من دماء، فكان الناس كما وصفهم المنصور في وصيته لابنه: (إني تركت الناس ثلاثة أصناف: فقيرًا لا يرجو إلا غناك، وخائفًا لا يرجو إلا أمنك، ومسجونًا لا يرجو إلا منك).

ولذلك كان من الضروري أن يتخذ المهدي سياسة لينة يداوي بها الجراح والنفوس، ويجمع بها الشمل من ذلك مثلاً أنه رد معظم الأموال التي صودرت على عهد أبيه إلى أصحابها، كذلك أطلق سراح المسجونين السياسيين ولاسيما العلويين منهم، وأمر لهم بأرزاق وصلات كذلك عمل المهدي على استرضاء أهل الحجاز الذين سبق أن عاملهم المنصور بكل شدة وعنف لتأييدهم ثورة محمد النفس الزكية. فحينما حج المهدي سنة 160 هـ، وزع على أهل الحجاز أموالاً طائلة، وأعاد إليهم الغلال والحبوب الواردة من مصر والشام. وكان المنصور قد قطعها عنهم خلال ثورة محمد النفس الزكية. كذلك ضم إلى حرسه الخاص عددا من الجنود الحجازيين يبلغ الخمسمائة كوسيلة لاسترضائهم، أو لحفظ التوازن بين العجم والعرب في جيشه.

أما من جهة أهل الشام، فقد عمل المهدي أيضا على اكتساب مودتهم فزارهم في بلادهم ونزل دمشق والقدس وفرق عليهم الأموال، وعمل على إزالة الخلافات التي بين القبائل المختلفة هناك.

ولقد حرص المهدي على إقامة العدل بين الناس، فكان يجلس مع القضاة في بغداد عند النظر في المظالم، كما اتخذ بيتا له نافذة من حديد كي يضع فيه الناس عرائض شكواهم، فيمكن بذلك النظر فيها دون إبطاء أو تأخير.

والواقع أن عهد المهدي امتاز بالهدوء الداخلي وبالمشروعات الإصلاحية التي تعود على الرعاية بالخير والنفع كبناء المدارس والمستشفيات، والاهتمام بشؤون التجارة ومسالكها وإنشاء شبكة من الطرق العامة جعلت من بغداد مركزا تجاريا عالميا. واهتم المهدي بصفة خاصة بطريق الحجاج المؤدي إلى مكة، فأقام القصور والمحطات والمصانع (أي خزانات المياه) على جانبيه، كما وضع فيه الحراس لحمايته. كذلك استحدث البريد على هذا الطريق ومدّه إلى اليمن، فهو أول خط بري بين العراق والحجاز واليمن. وكان البريد ينقل هناك على ظهور الخيل والإبل والبغال. ولا شك أن الأموال الطائلة التي تركها المنصور قد ساعدت المهدي على تنفيذ هذه المشروعات والانفاق عليها.

موسى الهادي:

تولى عقب وفاة الخليفة المهدي ابنه الأكبر موسى واتخذ لقب الهادي ولم تمتد فترة خلافته أكثر من عام وكان أهم ما يميز هذا العام:

أ_ ثورة العلويين:

عرفت هذه الثورة بموقعة فخ عام 169هـ نظرًا لوقوعها في منطقة فخ بالحجاز وكان سبب هذه الثورة أن والي المدينة قبض على بعض العلويين وجلدهم وطاف بهم في أنحاء المدينة المنورة لشربهم النبيذ مما أثار غضب رئيس العلويين في ذلك الوقت الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابن عم النفس الزكية فقام بثورته واستولى على المدينة ثم اتجه إلى مكة في موسم الحج فانضم إليه بعض الحجاج والعبيد.

وفي مكان يسمى فخ بين مكة والمدينة تقابل العلويون مع الجيوش العباسية في معركة عامة سنة 169هـ هزم فيها العلويين وقتل قائدهم الحسين الذي سمي بقتيل فخ كما قتل الحسن بن محمد النفس الزكية الذي كان السبب المباشر في قيام هذه الثورة.

ب_ مشكلة ولاية العهد:

لم تكن العلاقة بين الخليفة موسى الهادي وأخيه هارون الرشيد والذي ولي عهده ودية بل عمد الهادي إلى خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد وجعلها في ابنه لكن هارون الرشيد رفض التنازل عن حقه في الخلافة فجرده الهادي من جميع مراسم الحكم وأجبر بعض رجال الدولة على البيعة لابنه وقبض على من رفض منهم.

ج _ قد انتهى الأمر بوفاة موسى الهادي فجأة وقد قيل ان سبب وفاته قرحة في جوفه وقيل أن أمه الخيزران قد وضعت له السم لأنه حجر عليها وقد توفي موسى الهادي عام 170هـ.

هارون الرشيد (170-193هـ/786-809م)

تولي هارون الرشيد الخلافة عقب وفاه أخيه الهادي وامتد حكمه مدة ثلاثة وعشرين عاما تميز معظمها بالهدوء النسبي تارة، وبالأحداث الغريبة تارة أخرى.

1- نكبة البرامكة

تعد أسرة البرامكة من أشهر الأسر في التاريخ الإسلامي وقد ارتفعت منزلتها في عهد الرشيد نظرًا لأنه قد فوض كبير البرامكة يحيى في كل أمور الدولة دون الرجوع إليه، كما قسم الرشيد الإدارة بين ولديه ، ففضل بن يحيى كان يحكم المشرق في حين حكم أخوه جعفر مغرب الدولة العباسية لكن حدث أن أمر الرشيد بمصادره أموالهم وقتل جعفر وسجن يحيى كبير البرامكة مع ابنه الأفضل والسبب وراء ذلك مختلف عليه إلا أن الرأي الأقرب إلى الصواب أن البرامكة قد استأثروا بكل أمور الدولة دون الرشيد أي أنه أصبح يملك ولا يحكم إن صح ذلك التعبير وقد وصلت إلى الرشيد بعض أقوال الشعراء والعامية حول ذلك ، وصار الرشيد يتلقى رقاعا غفلا من التوقيع تصور خطورة الحال.

ومن أمثله ذلك تلك الرقعة الشعرية التي تقول:

قل لأمين الله في أرضه ومن إليه الحل والعقد

هذا ابن يحيى قد غدا ملكا مثلك ما بينكم حد

أمرك مردود الي أمره وأمره ليس له رد

ونحن نخشى أنه وارث ملكك إن غيبك اللحد

كذلك يروى أن السيدة زبيدة كانت تنفر من البرامكة وأن جعفر البرمكي كان يعتمد عدم تنفيذ أوامرها حتى انها شكته إلى الرشيد واضطر الرشيد أن يكتب إلى جعفر في ذلك.

ولا شك أن كثرة الدسائس والسعيات قد أفرغت الرشيد وجعلته يشعر بأنه صار مغلوبا على أمره وأن البرامكة شاركوه في سلطانه بشكل أخل بتوازن الدولة وسلامتها مما اضطره إلى التخلص منهم.

ولاية العهد:

عمد الخليفة هارون الرشيد إلى عدم الوقوع في المشكلة التي حدثت بينه وبين أخيه الهادي حيث عهد لابنه محمد الأمين بولاية العهد من بعده سنة 175هـ ، وذلك تحت تأثير الحزب العربي ، ولم يرض الجانب الفارسي وعلى رأسه البرامكة بهذا الوضع ، فأخذوا يسعون لدى الرشيد حتى نجحوا في جعله يعهد إلى ولده المأمون بولاية العهد بعد الأمين سنة 182هـ ، على أن يتولى المأمون المشرق بعد وفاة أبيه، بمعنى أن خلافة الأمين بعد وفاة والده على المشرق تصبح خلافة صورية، ومعروف أن المأمون كان من أم فارسية ولهذا أيده البرامكة. وكتب بذلك عهد ووضعه بمكة على حائط الكعبة عام 187هـ. أخذ الرشيد علي ولديه الموثيق المؤكدة بأن يخلص كل منهما لأخيه، وأن يترك الأمين للمأمون كل ما عهد إليه من بلاد المشرق: ثغورها، وكورها، وجندها، وخراجها ، وبيوت أموالها وصدقاتها وعشورها

وبريدها .وسجل الرشيد هذه الموائيق على شكل مراسيم وعلقها في الكعبة لتزيد في قدسيته ويؤكد تنفيذها كما كتب منشور عامًا للآفاق بهذا المعنى .

ولسوف يظهر سوء هذه السياسة عندما يتولى الأمين الخلافة ويعمل علي خلع المأمون من ولاية العهد إذ ستتشب الحروب فيما بينهما.

خلافة محمد الأمين 193-198هـ / 809-813 م

لم يميز خلافة الأمين غير النزاع مع أخيه المأمون وذلك كما سبقت الإشارة أن الخليفة الرشيد قد جعل خراسان ولاية مستقلة تحت حكم المأمون ولا يجوز للأمين التدخل في شؤونها لكن الأمين رأى في ذلك _ كما نسميه في العصر الحديث _ بأن حكمه ناقص بوجود دولة مستقلة داخل دولته، وقد أشار على الأمين وزيره الفضل بن الربيع بضرورة اختراق خراسان عن طريق وضع بريد بها ونظام البريد عندهم لم يكن كما نقول نحن اليوم البوستة أي أنه لم يكن بريداً للجمهور بل بريداً خاصاً بأعمال الدولة وسلامتها، ومهمته التجسس على عمال الدولة وإبلاغ العاصمة في أقرب وقت مستطاع بما يجري في الأقاليم من أحداث سياسية واقتصادية وغيرها. وقد رفض المأمون ذلك التدخل فعمد الخليفة الأمين الي وسيلة أخرى وهو أن يمنحه المأمون بعض كور خراسان فرفض المأمون ذلك أيضاً، وبعد فشل المفاوضات السلمية أصبح الاحتكام للسياف أمراً لا مفر منه ففي أوائل عام 195هـ أمر الأمين بوقف الدعاء للمأمون بعده وأعلن البيعة لابنه موسى ولقبه الناطق بالحق ونقش اسمه على السكة، وكان هذا بمثابة خلع للمأمون، ثم بعث من سرق الكتابين من الكعبة وأحرقهما، وأمام هذا الإعلان رأى المأمون أن يستعد للحرب والتي انتهت بمقتل الخليفة الأمين 198هـ واعتلاء المأمون عرش الخلافة العباسية.

خلافة عبد الله المأمون 198-218هـ / 813-833 م

تولى المأمون عرش الدولة العباسية واستقر بمدينة مرو ولم يرحل إلى بغداد لخوفه من أهلها بعد أن دمرت على يد قائده طاهر بن الحسين وشهد عهد المأمون العديد من الثورات والأحداث السياسية حيث ثار عليه في أول حكمه رجل يعرف بأبي السرايا السري بن منصور الشيباني وهو عربي وقد انتصر علي الجيوش العباسية أول الأمر، وهنا رأى الحسن بن سهل والي العراق أن يستعين بخبرة القائد هرثمة بن أعين

_ الذي سبق للحسن بن سهل أن طرده من العراق وأمره بالذهاب لخراسان تخلصاً منه _ واستطاع

هرثمة أن يقضي على تلك الثورة ويقتل قائدها ويشرد أتباعها 201هـ.

كذلك أخذ المأمون يميل إلى الشيعة حيث جعل من الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ولي لعهدده كما زوجه ابنته وأمر جنوده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الثياب الخضراء شعار العلويين، وكتب بذلك إلى سائر أنحاء المملكة. ولم يكن المأمون يعلم أن الفرس بقياده وزيره الفضل بن سهل يعملون على تحويل الحكم من العباسيين السنة إلى العلويين الشيعة، فلما علم بذلك قرر الارتحال إلى بغداد كما أمر بقتل وزيره الفضل بن سهل كما توفي الإمام علي الرضا فجأة.

أما عن الأحداث السياسية في عهد المأمون والتي من أهمها نزول بعض الأندلسيين إلى الإسكندرية والاستقرار بها وذلك بعد أن طردهم أمير الأندلس الحكم بن هشام بعد أن ثاروا عليه وهي الثورة المعروفة بثورة الرض، لأنها قامت في رض من أرباض (ضواحي) قرطبة، وقد عاقبهم هذا الأمير بهدم ديارهم وحرقت حبيهم، وحرث أرضه وزراعتها، فانتقلوا في البحر إلى الإسكندرية فأرسل إليهم المأمون عبد الله بن طاهر حتى يأمرهم بالجلء عن الإسكندرية.

كذلك ثار أقباط مصر عام 216 هـ على أميرهم منصور بن عيسى الذي لم يستطع القضاء على ثورتهم فارتحل المأمون إلى مصر فأمر بعزل والي لسوء سياسته مع الأقباط وحاول المأمون تهدئة الأقباط لكنهم رفضوا السلم فأمر باستخدام القوة معهم حتى أخمد ثورتهم.

كذلك اندلعت ثورة الزط في جنوب العراق بنواحي البصرة، وتقول المراجع عنهم أنهم جيل من السند في شمال غرب الهند، انتقلوا إلى المنطقة الواقعة على الخليج العربي، وقد تكاثر عدد الزط وتزايدت قوتهم في أيام الفتنة بين الأمين والمأمون حتى غلبوا على طريق البصرة، وأرسل إليهم المأمون عدة حملات في سنتي 205، 206 هـ، لكنه لم يستطع اخماد ثورتهم، بل ان خطرهم ازداد حتى فرضوا المكوس على السفن الداخلة إلى بغداد وحالوا دون وصول الأقوات إلى عاصمة الخلافة، واستمر الزط يقاتلون العباسيين إلى أن قضى على ثورتهم بعد ذلك القائد العربي عجيف بن عنبسة في عهد الخليفة المعتصم الذي أمر بنفيهم إلى مدينة عين زورية في منطقة الثغور الإسلامية بآسيا الصغرى، ثم بعد ذلك انتشروا في البلدان الأوروبية ولهم العديد من الأسماء ففي مصر يعرفون بالغجر وفي اسبانيا بالنور.

النهضة الفكرية في عهد المأمون

تميز الخليفة المأمون باتساع الأفق في حب العلم والعلماء والاطلاع على الحضارات السابقة فنشطت في عهده حركة الترجمة من الكتب اليونانية والفارسية والهندية، فأنشأ لها بيت كبير عرف ببيت الحكمة ببغداد، وكان هذا البيت بمثابة معهد علمي، يضم مكتبة لنسخ الكتب وداراً لترجمتها إلى العربية، كما كان له مدير ومساعدون ومترجمون ومجلدون للكتب.

الخليفة المعتصم 218-227هـ / 833-842 م

قدم المأمون في ولاية العهد أخيه المعتصم على ابنه العباس وذلك لما اتصف به المعتصم من قوة الشكيمة وحسن الإدارة وقوة الجسد حيث كان جندياً يعمل بجدة في صفوف الجيش العباسي وأهم ما يميز عهد المعتصم اتخاذه عاصمة ثانية للدولة العباسية وهي مدينة سامراء وذلك لإسكان جنده من الترك الذي أكثر من شراءهم فضاقت بهم بغداد واشتكى منهم الناس فنقلهم إلى سامراء واستعان بهم للقضاء على النفوذ العربي والفارسي. أما ثاني ما يميز عهد المعتصم هو انتصاره على ثورات الزط وثورة الخرمية بقيادة بابك الخرمي.

أما ثالث ما يميز عهد المعتصم هو انتصاره على البيزنطيين واستيلائه على مدينة عمورية أهم مدن البيزنطيين ومسقط رأس والد الإمبراطور تيوفيل وتدميرها انتقاماً من الإمبراطور الذي اعتدى على حرمة المسلمين وحدود دولتهم ويعد المعتصم آخر أقوى خلفاء الدولة العباسية إذ أن الخلفاء من بعده سيكونون من الضعف بمكان بحيث يتحكم فيهم الجند الأتراك الذين إما يعزلون الخلفاء أو يعذبوهم أو يقتلوهم ويعد المعتصم أيضاً خاتمة ما يعرف تاريخياً بالعصر العباسي الأول.

قائمة المصادر والمراجع:

(1)المصادر:

-(الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس):

- كتاب الوزراء والكتّاب، حققة ووضع فهرسه: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولى، 1357هـ/1987م.

-(إبن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري):

-الكامل في التاريخ، راجعه وصحّحه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1407هـ/1987م، الأجزاء: 7، و10.

- (الأزدي، جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن علي):
- أخبار الدول المنقطعة، تحقيق: عصام مصطفى هزايمة وآخرون، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد-الأردن، 1999م.
- (البغدادى، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب):
- تاريخ بغداد مدينة السلام، وأخبار محدثيها وذكر قطنها العلماء من غير أهلها ووارديها، الجزء الرابع، الثالث، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1422هـ/2001م.
- (البكجري، علاء الدين مغلطاي بن قلنج بن عبد الله الحنفي):
- (الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى):
- أخبار الرضا والمتقي، أو تاريخ الدولة العباسية من 322 إلى 333هـ، وهو جزء من كتاب الأوراق، إعتنى به: جون هيورث دن، دار المسيرة، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، 1399هـ/1979م.
- (الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير):
- تاريخ الرسل والملوك، الجزء التاسع، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1975م.
- (إبن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا):
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، د.ت.
- (طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر):
- كتاب بغداد، تحقيق: هانس كيلر، دار الجنان، بيروت-لبنان، د.ت.
- (إبن العبري، أبو الفرج مار غريغوريوس بن أهرون الحكيم الملطي):
- مختصر تاريخ الدول، طبعة حجرية، د.ت.
- (القفطي، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف):
- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، إعتنى به: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 2005م.
- (المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي):
- التنبية والإشراف، طبعة حجرية، ليدن، 1893م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، الأجزاء: الثاني والثالث والرابع، إعتنى به وراجعته: كمال مرعي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، الطبعة الأولى، 1425هـ/2005م.
- (مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب):

-تجارب الأمم وتعاقب الهمم، الجزء الرابع، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ/2003م.

(2)المراجع:

- (أبوخليل، شوقي):

-هارون الرّشيد أمير الخلفاء وأجلّ ملوك الدّنيا، دار الفكر، الطبعة الرابعة، دمشق، 1999م.

- (الإليدي، محمد دياب):

-إعلام النّاس بما وقع للبرامكة مع بني العبّاس، دارصادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1990م.

- (بيطار، أمينة):

-تاريخ العصر العبّاسي، منشورات جامعة دمشق، 1416-1417هـ/1996-1997م، الطبعة الرابعة.

- (الدوري، عبد العزيز):

-تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري، منشورات مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، 1995م.

-الجذور التاريخيّة للشّعوبيّة، دار الطليعة للطباعة والنّشر، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، 1981م.

- دراسات في العصور العبّاسيّة المتأخّرة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، الطبعة الثّانيّة، بيروت، 2011م.

-العصر العبّاسي الأوّل: دراسة في التّاريخ السّيّاسي والإداري والمالي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثّالثة، 1997م.

- (فوزي، فاروق عمر):

-تاريخ النّظم الإسلاميّة: دراسة لتطوّر المؤسّسات المركزيّة في الدّولة في القرون الإسلاميّة الأولى، دار الشروق، عمّان، 2009م.

-الخلافة العبّاسيّة، الجزء الأوّل: عصر القوّة والإزدهار، دار الشروق، عمّان، 2009م.

-الخلافة العبّاسيّة، الجزء الثّاني: عصر السقوط والإنهيار، دار الشروق، عمّان، 2009م.